وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾

إن قولهم : « ربنا إننا آمنا » هو أول مرتبة للدخول على باب الله ، فكأن الإيمان بالله يتطلب رعاية من الذى تلقى التكليف لحركة نفسه ، لأن الإيمان له حق يقتضى ذلك ، كأن المؤمن يقول : أنا ببشريتى لا أستطيع أن أوفى بحق الإيمان بك ، فيارب اغفر لى ما حدث لى فيه من غفلة ، أو من زلة ، أو من كبر ، أو من نزوة نفس .

وهذا الدعاء دليل على أنه عرف مطلوب الإيمان كما أوضحه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيانه لمعنى الإحسان حين قال :

« الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] .

كأنك تستحضر الله فى كل عمل ، لأنه يراك .

وهل يتأتى لواحد من البشر أن يجترىء على محارم من يراه بعينه ؟ حينئذ يستحضر المؤمن ما جاء إلينا من مأثور القول ، فكأنه سبحانه وتعالى يوجه إلينا الحديث : يا عبادى إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم ، فالخلل فى إيمانكم . وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم ؟

وكأن الحق سبحانه يقول للعبد : هل أنا أقل من عبيدى ؟ أتقدر أن تسىء إلى أحد وهو يراك ؟ إذن فكيف تجرؤ على الإساءة لخالقك ؟

إن قول المؤمنين : « إننا آمنا فاغفر لنا » دليل على أنهم علموا أن الإيمان مطلوباته صعبة . « الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا » .

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

فلنر على ماذا رتبوا غفران الذنب ؟ لقد رتبوا طلب غفران الذنب على الإيمان . لماذا ؟ لأنه مادام الحق سبحانه وتعالى قد شرع التوبة ، وشرع المغفرة للذنب ، فهذا معناه أنه سبحانه قد علم أزلا أن عباده قد تخونهم نفوسهم ، فينحرفون عن منهج الله .

ويختم الحق سبحانه الآية بقوله على ألسنة المؤمنين : « وقنا عذاب النار » لأنه ساعة أن أعلم أن الحق سبحانه وتعالى ضمن لى بواسع مغفرته أن يستر علىّ الذنب ، فإن العبد قد يخجل من ارتكاب الذنب ، أو يسرع بالاستغفار .

ولماذا لا يكون قوله : « فاغفر لنا ذنوبنا » بمعنى استرها يارب عنا فلا تأتى لنا أبدا ؟ وإن جاءت فهى محل الاستغفار والتوبة . فإذا أذنبت ذنبا ، واستغفرت ربى ، وعلمت أن ربى قد أذن بالمغفرة ؛ لأنه قال :

﴿ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾

(من الآية ١٠ من سورة نوح)

فإن الوجل يمتنع ، والخوف يذهب عنى ، وأقبل على الله بمحبة على تكاليفه وأحمل نفسى على تطبيق منهج الله كله . ولذلك حينما شرع الحق سبحانه وتعالى للخلق التوبة كان ذلك رحمة أخرى . وهذه الرحمة الأخرى تتجلى فى المقابل والنقيض .

هب أن الله لم يشرع التوبة وأذنب واحد ذنبا ، وبمجرد أن أذنب ذنبا خرج من رحمة الله ، فماذا يصيب المجتمع منه ؟ إن كل الشرور تصيب المجتمع من هذا الإنسان لأنه فقد الأمل فى نفسه ، أما حينما يفتح الله له باب التوبة فإن ارتكب العبد ذنبا ساهيا عن دينه ، فإنه يرجع إلى ربه .

وتلك واقعية الدين الإسلامى ، فليس الدين مجرد كلام يقال ، ولكنه دين يقدر الواقع البشرى ، فإنه ـ سبحانه ـ يعلم أن العباد سيرتكبون الذنوب ، فيرسم لهم أيضا طريق الاستغفار . وإذا ما ارتكب العباد ذنوبا ، فإن الحق يطلب منهم أن يتوبوا عنها . وأن يستغفروا الله . فإذا ما لذعتهم التوبة حينما يتذكرون الذنب فإن هذه اللذعة كلما لذعتهم أعطاهم الله حسنة .

كأن غفران الذنب شيء ، والوقاية من النار شيء آخر . كيف ؟ لأنه ساعة أن يعلم العبد أن الحق سبحانه وتعالى ضمن للعبد مغفرته ، وهو الخالق المربى ، فإن العبد يذهب إلى الله مستغفرا طامعا فى المغفرة والرحمة . إنها دعوة المؤمنين إن كانوا قد نسوا أن يستغفروا لأنفسهم . لماذا ؟ لأن الاستغفار من الذنب تكليف من الله . وكما قلنا : إن الإنسان قد ينسى بعضا من التكاليف ، لذلك فمن الممكن أن يسهو عن الاستغفار ، ولذا يقول الحق على ألسنة عباده المؤمنين : «وقنا عذاب النار» .

ومعنى التقوى أن تجعل بينك وبين النار وقاية ، أو تجعل بينك وبين غضب ربك وقاية ، فإذا ما أخذت النعم من الله لتصرفها فى منهج الله تكون حسنة لك ، وقلنا : إن « اتقوا الله » و« اتقوا النار » ملتقيتان ، لأن معنى « اتقوا النار » كى لا تصيبكم بأذى ، « واتقوا الله » تعنى أن نضع بيننا وبين غضب الله وقاية ، لأن غضب الله سيأتى .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾

وهذه كلها صفات للذين اتقوا الله ، وأعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، والأزواج المطهرة ، ورضوان من الله أكبر ، وهم صابرون وصادقون وقانتون ومنفقون فى سبيل الله ، ومستغفرون بالأسحار .

وصابرون على ماذا ؟ إنهم صابرون على تنفيذ تكاليف الله ، لأننا أول ما نسمع عن التكليف فلنعلم أن فيه كلفة ومشقة ، والتكاليف الشرعية فيها مشقة لأنها قيدت حرية العبد .

لقد خلقك الحق خلقا صالحا لأن تفعل كذا وألا تفعل . فساعة يقول لك :

افعل . . فإنه قد سد عليك باب « لا تفعل » وساعة يقول لك الحق : لا تفعل فإنه يكون قد سد عليك باب « افعل » ، وهكذا يكون تقييد حركتك وتقييد المخلوق على هيئة الاختيار فيه مشقة ، فإذا ما جاء أمر الله بـ « افعل » فقد يكون الفعل فى ذاته شاقا ، فإن صبرت على مشقة الفعل الذى جاء بوساطة « افعل » فأنت صابر ، لأنك صبرت على الطاعة . . وقد تصبر عن المعصية ، عندما يلح عليك شىء فيه غضب الله فترفض أن ترتكب الذنب ، فتكون قد صبرت عن ارتكاب الذنب .

إذن ففى « افعل » صبر على مشقتها ، وفى « لا تفعل » صبر عنها ، فالصابرون لهم اتجاهان اثنان ، لأن التكليف إما أن يكون بافعل ، وإما أن يكون بلا تفعل . فساعة يأتى التكليف بافعل فقد تأتى المشقة . . وعندما تنفذ التكليف بافعل فأنت قد صبرت على المشقة . . وعندما يأتى التكليف بـ « لا تفعل » كأمر الحق بعدم شرب الخمر ، أو « لا تسرق » فأنت قد صبرت عنها . . إذن فـ «افعل » ولا « تفعل » قد استوعبت نَوْعَىْ التكليف ، وبقيت بعد ذلك أحداث لا تدخل فى نطاق افعل ولا تفعل ، وهى ما ينزل عليك نزولا قدريا بدون اختيار منك بل هى القهرية والقسرية .

فساعة أن يطلب الله منك أن تفعل ، أى إنه قد خلقك صالحا ألا تفعل كما قلنا من قبل . إلاّ إن كنت مجبرا على الفعل فقط . وكذلك إذا قال لك الحق : « لا تفعل » . والشىء القدرى الذى لا صلاحية فيه للاختيار ماذا يفعل فيه المؤمن ؟ إنه يصبر على الآلام والمتاعب لأنه آمن بالله ربا ، والرب هو الذى يتولى تربية المربى لبلوغه حد الكمال المنشود له فإذا جاء لك الحق بأمر لا خيار لك فيه ، كالمرض أو الكوارث الطارئة ، كوقوع حجر من أعلى أو إصابة برصاصة طائشة ، فكل ذلك هى أمور لا دخل لـ « افعل » ولا « تفعل » فيها .

وهنا يكون الصبر على مثل هذه الأمور هو إيمان بحكمة من أجراها عليك . لأن الذى أجراها رب ، وهو الذى خلقنى فأنا صنعته . وما رأينا أحدا يفسد صنعته أبدا . فإذا ما جاء أمر على الإنسان بدون اختيار منه ، فالذى أجراه له فيه حكمة ، فإن صبر الإنسان على هذه الآلام فإنه يدخل فى باب الصابرين .

إذن ، فالصابرون أنواع هم : صابر على الطاعة ومشاقها ، صابرٌ عن المعاصى

ومغرياتها ، وصابر على الأحداث القدرية التى تنزل عليه بدون اختيار منه . وإذا رأيت إنسانا قد صبر على أمر الطاعة وصبر عن شهوة المعصية وصبر على الأقدار النازلة به ، فاعرف حبه لربه ورضاه عنه .

ونأتى بعد ذلك لوصف آخر يقول الله فيه : « الصابرين » « والصادقين » .

والصدق كما نعلم يقابله الكذب ، والصدق كما نعرف حقيقته : يأتى حين توافق النسبة الكلامية التى يتكلم بها الإنسان ، النسبة الأخرى الخارجية الواقعة فى الكون .

فإن قلت : « حصل كذا وكذا » فتلك نسبة كلامية صدرت من متكلم ، فإن وافقها الواقع بأنه حصل كذا وكذا فعلا يكون المتكلم صادقا . وإن لم يكن الواقع موافقا لحدوث ما أخبر به يكون المتكلم كاذبا . لماذا ؟ لأن كلام المتكلم العاقل لابد له من نسب ثلاث :

الأولى وهى النسبة الذهنية : فقبل أن أتكلم أعرض الأمر على ذهنى ، وذهنى هو الذى يعطى الإشارة للسانى ليتكلم ، هذه هى النسبة الأولى واسمها « نسبة الذهن » . وقد يعن لى أن تأتى النسبة الذهنية ثم أعدل عنها فلا أتكلم ، فتكون النسبة الذهنية قد وُجِدَت ، والنسبة الكلامية لم توجد .

وقد أصر على أن أبرز إشارة ذهنى على لسانى فأقول النسبة الكلامية . ونأتى بعد النسبة الكلامية لنرى : هل الواقع أن ما حدث وتحدثت به وقع أم لم يقع ؟ فإن كان قد وقع ، يكون الكلام منى صدقا . وإن لم يكن قد وقع ، وكانت النسبة الخارجية على عكس ما أخبرت به . فإننا نقول : « هذا كلام كذب » إذن : فالصدق : هو أن تطابق النسبة الكلامية الواقع . والكذب : هو ألا تطابق النسبة الكلامية الواقع . وكثيرا ما يخطىء الناس فى فهم الواقع فيجدون تناقضا فى بعض الأساليب .

مثال ذلك ، حينما تعرض بعض المستشرقين لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١ من سورة المنافقون)

تلك نسبة كلامية صدرت منهم ، فهل هى مطابقة للواقع أم هى مخالفة له ؟

إنها مطابقة للواقع . ويؤكد الحق ذلك بقوله :

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ﴾

(من الآية الأولى من سورة المنافقون)

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴾

(من الآية الأولى من سورة المنافقون)

ففيم كذب المنافقون ؟ هل كذبوا فى قولهم : « إنك لرسول الله » ؟ لا . إن الحق لم يكذبهم فى قولهم : « إنك لرسول الله » ، لأن الله قد أيد هذه الحقيقة بقوله : « والله يعلم إنك لرسوله » .

ولكن كذبهم الله فيما سها عنه المستشرق الناقد عندما قالوا : « نشهد إنك لرسول الله » . لقد كذبهم الله فى شهادتهم ، لا فى المشهود به ، وهو أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول من الله ، إن الله يعلم أن محمدا رسوله المبعوث منه رحمة للعالمين ، لكن الكذب كان فى شهادتهم هم .

إن كلام المنافقين مردود من الله . لماذا ؟ لأن الشهادة تعنى أن يواطئ اللسان القلب ويوافقه . وقولهم : شهادة لا توافق قلوبهم وتعنى كذبهم .

إذن ، فالتكذيب هو لشهادتهم ، فلو قالوا : « إنك لرسول الله » دون « نشهد » لكان قولهم : قضية « سليمة » . ولذلك كان تكذيب الله لشهادتهم ، ومن هنا ندرك السر فى قول الله : « والله يعلم إنك لرسوله » . إن الحق يؤكد الأمر المشهود به وهو بعث محمد رسولا من عند الحق ، وبعد ذلك يأتى لنا الحق بشهادته إن المنافقين كاذبون فى قولهم : « نشهد » . فالصدق أن تطابق النسبة الكلامية الواقع . والصدق .. كما قلنا من قبل - حق ، والحق لا يتعدد ، وضربت من قبل المثل بأن الإنسان الذى نطلب منه

أن يروى واقعة شهدها بعينيه ، وأن يحكيها بصدق لن يتغير كلامه أبدا ، مهما تكرر القول ؛ أو عدد مرات الشهادة . لكن إن كانت الواقعة كذبا ، فالراوى تختلط عليه أكاذيبه ، فيروى الواقعة بألوان متعددة لا اتساق فيها ، وقد ينسى الراوى الكاذب ماذا قال فى المرة الأولى ، وهكذا ينكشف سر الكذب . لكن الراوى عن واقع مشهود ويصدق ، هو الذى يحكى ، وهو الذى لا تختلف رواياته فى كل مرة عن سابقتها بل تتطابق .

فعندما نقول : « إن زيدا مجتهد » ، فهذا يعنى أن اجتهاد زيد قد حدث أولا ، ثم يأتى فى ذهن من رأى اجتهاد زيد أن يخبر بأمر اجتهاده ، ثم يخبر بالكلام عن اجتهاد زيد . إن الأمر الخارج وهو اجتهاد زيد قد حدث أولا ، وبعد ذلك تأتى النسبة الذهنية ، وبعد ذلك تأتى النسبة الكلامية .

ولكن الإنشاء وهو ضد الخبر ، هو أن نطلب من واحد أن ينشىء أمرا لا واقع له ، كأن نقول لواحد : اجتهد . إننا قبل أن نقول لإنسان ما : « اجتهد » فمعنى ذلك أن الاجتهاد كان أمرا فى ذهن القائل ، وعندما ينطقها تصبح « نسبة كلامية » . وبعد ذلك يحدث الواقع ، بعد النسبة الذهنية ، والنسبة الكلامية ، وهذا هو الإنشاء .

إن الإنشاء الطلبى يعنى أن تحدث النسبة الخارجية بعد النسبة الكلامية . والصادقون هم الذين أراد الله أن يمدحهم ، لماذا ؟ وأين هو مجال صدقهم ؟ إنهم الذين تتطابق حركتهم مع منهج الله ، لأنهم حين قالوا : « لا إله إلا الله » ، وآمنوا به ، فهم قد التزموا بكل مطلوبات الإيمان قدر الطاقة . ومعنى « لا إله إلا الله » أى لا معبود إلا الله . ومعنى لا معبود إلا الله أى أنه لا طاعة إلا لله .

والطاعة ـ كما نعرف ـ هى امتثال أمر ، وامتثال نهى . إذن فمجال « لا إله إلا الله » يشمل أنه لا معبود بحق إلا الله ، ولا مُطاع فى تكليفه إلا الله ، ولا امتثال لأمر أو لنهى إلا للأمر القادم من الله ؛ فإن امتثل إنسان الأمر من الله بعد قوله : « لا إله إلا الله » كان هذا الإنسان صادقا فى قوله : « لا إله إلا الله » .

وهذا هو صدق القمة ، أن تكون كل تصرفات قائل : « لا إله إلا الله » متطابقة

مع هذا القول . والمؤمن الحق هو من يبنى كل تصرفاته موافقة لمنهج الله . هذا هو الإنسان الصادق . أما الذى يقول بلسانه : « لا إله إلا الله ، لا معبود بحق إلا الله » ثم يخالف ربه بعصيانه له ، لنا أن نقول له : أنت كاذب فى قولك « لا إله إلا الله » لماذا ؟ لأنه لم يطابق النسبة التى قالها . إن هذا الإنسان إذا آمن بأى تكليف ثم فعل ما يناقضه قلنا له : أنت منافق ، لماذا ؟ لأننا عندما تكلمنا فى أول سورة البقرة عن المنافقين قلنا : إن المؤمن حين يؤمن بالله يكون صادقا مع نفسه ، لأنه قال : « لا إله إلا الله » وهو مؤمن بها ، والكافر حين ينكر الألوهية يكون صادقا مع نفسه أيضا .

أما المنافق فهو لا يصدق مع نفسه ، ولا يصدق مع الناس ، إنه مذبذب بين هؤلاء وهؤلاء . إن المنافق بلا صدق مع النفس، ولذلك يصفهم الحق :

﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ ﴾

(من الآية ١٤٣ من سورة النساء)

إن الكافر له صدق مع النفس فهو لا يقول : «لا إله إلا الله » لأنه لا يعتقدها . أما المنافق فقد قال : « لا إله إلا الله » وهى غير مطابقة لسلوكه ، لذلك يكون غير صادق مع نفسه ، وغير صادق مع ربه . إذن ، فقول الحق : « الصادقين » مقصود به هؤلاء الناس الذين يأتون فى كل حركاتهم صادرين عن منهج الله ، فلا يؤمنون بقضية ، ويفعلون أخرى . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾

(سورة الصف)

أى أنه حين يكون القول شيئا مختلفا عن الفعل ، لا تتطابق النسبة . فالصادقون هم الذين يصدقون فى سلوكهم مع كلمة التوحيد فى كل ما تتطلبه هذه الكلمة من هذه السلسلة : « لا إله إلا الله لا معبود بحق إلا الله » أى لا مطاع فى أمر أو نهى إلا الله ، فإن جئت وطاوعت أحدا فى غير ما شرع الله يحق للمؤمنين أن يقولوا لك : أنت كاذب فى قولك : « لا إله إلا الله » .

« فعن أبي هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[1] .

هذا هو سمو الإيمان عند المؤمن ، إن المؤمن لا يمكن أن يكذب أو يخالف مقتضيات عقيدته ؛ لأن المؤمن فى كل تصرفاته خاضع لإيمانه بأنه لا إله إلا الله .

ثم يقول الحق : « والقانتين » والقانت : هو العابد بخشوع وباطمئنان وباستدامة . والقانت صادق مع نفسه ، لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى حين يكلف عباده تكليفا ، فقد يكلفهم بشىء يعز على أفهامهم أن تدرك حكمته .

وأقبل القانتون من العباد على هذا التكليف ؛ لأن الذى أمرهم به إله قادر ، فهم يثقون فى حكمته فأدُّوا الأمر الصادر إليهم لأنهم خاضعون لحكمة الله .

إنهم منفذون للأمر القادم من الآمر لا لعلة الأمر . وبعد أن يصنعوا ذلك ؛ يريهم الله نورانية هذا الحكم بأن يعطيهم فرقانا فى أنفسهم :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

فيقول المؤمن منهم لنفسه بعد أن يرى هذا الفرقان : إن الله قد أراد لى بهذا الأمر أن أدرك حلاوة طاعة هذا الأمر ، ولذلك قال أحد العارفين بالله :

إن كنت تريد أن تعلم عن الله حكما كلفك الله به دون أن تعلم علته فاتق الله فيه ، وحين تتقى الله فى هذا الأمر ، فإنك تجد الحكمة مستنيرة فى ذهنك ، ولذلك يقول الله :

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة)

فكأنك قبل التقوى لم يعلمك الله ، أما بعد التقوى فإن الله يعلمك ، فتقبل على تنفيذ التكليف لتلمس إشارة فى نورانية نفسك ، وهذا هو الفارق بين الأمر من المساوى ، والأمر من الأعلى . وعندما ترتقى كلمة « الأعلى » ، فإنها لا تنطبق إلا على الأعلى المطلق وهو الله ، إنه الأعلى فى الحكمة ، والأعلى فى المنزلة،والأعلى فى المكانة ، والأعلى فى الربوبية .

إذن ، فالإنسان لا يطلب علة حكم إلا من مساو له ، فإن قال لك أحد من البشر : افعل الشيء الفلانى . فإنك تسأله : لماذا ؟ فإن أقنعك ، فأنت تقوم بالفعل . وتكون قد قمت بتنفيذ هذا الفعل ؛ لأن المساوى لك قد أقنعك بالحكمة لا بالطاعة له .

ولكن عندما يصدر الأمر من الأعلى وهو الحق سبحانه وتعالى ، فإنك أيها العبد المؤمن تنفذ الأمر فورا عشقا فى طاعته . والمثال الذى أضربه للتقريب لا للتشبيه ، فالله الأعلى ، وهو منزه عن كل شبيه ، إن الأب يقول للابن فى حياتنا اليومية : إن نجحت فى المدرسة فسأحضر لك هدية هى الدَّراجة.فهل معنى ذلك أن علة الذهاب إلى المدرسة هى الحصول على الدراجة كهدية ؟ لا ، ليست هذه هى العلة ، إن العلة عند الأب هى أن يتعلم الابن ويتفوق فى حياته ، ويكبر ، وعند ذلك يدرك العلة ، ويقول لنفسه : لقد كان أبى على حق .

إذا كان هذا يحدث فى الحياة بيننا نحن البشر ، فكيف لنا بطاعة الأمر الصادر من الله ؟ إن الحق سبحانه وتعالى حين يكلف العبد تكليفاً ، فإن العبد قد يجد مشقة فى فهم العلة . والعبد المؤمن يعرف أن الرضوخ لتكليف الحق إنما هو خضوع للأمر الأعلى .

إن العبد المؤمن يعرف أنه آمن بمن هو أعلى منه وأعلى من كل كائن ، ولا يساويه أحد ، إن العبد المؤمن يعرف أنه آمن أولا بأن الله هو الإله الواحد ـ سبحانه ـ له مطلق

الحكمة ، وله القوة وله كل شيء في الكون ، وسبق أن ضربت المثل ـ ولله المثل الأعلى .

إن الإنسان قد يمرض ، وصحة الإنسان أثمن شيء عنده ، فيفكر في الذهاب إلى طبيب ، ويقول له : إنني أتعب من معدتي ، أو من قلبي أو من أمعائي . إنه يحدد ما يشكو منه . وعقل الإنسان هو الذي هداه إلى الطبيب الذي يشخص العلة ، وبعد ذلك يأخذ المريض من الطبيب ورقة مكتوبًا فيها الأدوية اللازمة . إن الإنسان يتناول كل دواء من هذه الأدوية دون أن يسأل الطبيب عن حكمة كل دواء ، لأنه لو سأل عن ذلك فهذا معناه الدخول في متاهة كيماوية ، فإن سأل أي إنسان ذلك المريض : لماذا تأخذ هذا الدواء ؟ فيجيب المريض : لأن الذي كتب لي هذا الدواء هو الطبيب المختص بعلاج المعدة ، أو القلب ، أو الأمعاء أو أي عضو يشكو منه الإنسان .

والطبيب قد يخطيء ، إنما حكم الله لا يخطيء أبدا ، فهو جل شأنه منزه عن الخطأ تماما . إن الحكمة تكون عند الحق سبحانه وتعالى ، وعندما ينفذ المؤمن مطلوب الله فإنه يدرك آثار الحكمة الربانية في نفسه . وكلمة « قانتين » كما عرفنا هي وصف لمن يعيشون القنوت ، والقنوت هو عبادة مع خضوع ، وخشوع واستدامة . لماذا الخضوع ، والخشوع ؟

لأن الله جل وعلا لم يشرع العبادة لينفذها الإنسان ، وينقذ نفسه من عذاب النار ، لا ، إننا نرى كثيرا من الناس ـ إذا ما لاحظنا واقع الحياة ـ إذا وجدوا رئيسا قوي الشكيمة وقوانينه صارمة في أن الموظفين تحت يده يجب أن يحضروا صباحا في الميعاد المحدد ، وأن ينصرفوا في الميعاد المحدد ، ولا يسمح لهم بالاشتغال بغير العمل ، فلا يشربون الشاي ، ولا يقرأون الصحف ولا يقابلون الأصدقاء ، وغير ذلك من الأعمال . ويأتي واحد من الموظفين فيقول عن هذا الرئيس « إنه شديد المراس ، ولذلك فليس له عندي إلا أن أحضر في الثامنة إلا خمس دقائق ، ولن أنصرف إلا في الثانية وخمس دقائق ، ولن أقرأ الصحف ولن أفعل أي شيء مما يمنعه » . إن هذا الموظف يفعل ذلك بجبروت واستعلاء على رئيسه حتى لا يسمح له بنقد أو تجريح ، فهذا الموظف ممتثل ولكن باستعلاء .

إنها طاعة بلا حب ، ولكنها باستعلاء . وقد يحاول عبد أن يقول : ماذا يطلب الله منى ؟ ألا يطلب منى الصلاة والزكاة وإقامة العبادات ؟ سوف أفعل ذلك . لمثل هذا العبد نقول : لا ، إن الله يطلب العبادة بحب منك وخشوع واطمئنان ، لأن التكليف من الحق صدقة أخرى أجراها الله على العبد . إن الحق سبحانه وتعالى قد كلف العبد بالتكاليف الإيمانية ، حتى يكون الإنسان سويا وله قيمة فى الحياة .

إن معنى « قانت » هو العبد الذى يؤدى عبادة ربه بخشوع ، وباطمئنان ، وباستدامة . لماذا ؟ لأن الذى يقبل على الطاعة ثم ينصرف عنها كأنه قد جرب وده لله فلم يجد الله أهلا للود . أما العبد الطائع فهو لا ينصرف عن العبادة ، لأنه ذاق حلاوة استدامة العبادة لله ، ومادام قد أدرك حلاوة العبادة فهو يقبل عليها بخشوع ، واطمئنان ، واستدامة ، ويدخل فى دائرة القانتين .

وبعد « القانتين » يقول الله سبحانه : « والمنفقين » وكلمة أنفق و«نفق » ، مأخوذة من كلمة « نفق الحمار » أى مات ، و« نفقت السوق » أى انتهت بضائعها واشتراها الناس ولم يبق منها شيء . و« نفقة » مأخوذة من هذا المعنى لتشعرنا بأن الإنسان حين ينفق فهو يميت ما أنفقه من نفسه ، فلا يتذكر أنه أنفق على فلان كذا ، وعلى علان كذا ، أى يعلم يقينا أن ما أنفقه هو رزق من أنفقه عليهم وليس له إلا أجر إيصاله إليهم فلا مَنَّ ، ولا إذلال .

إن الله يريد من كل إنسان يُخرج شيئا من ماله أن ينهى من ذهنه هذا الشيء الذى خرج من المال فلا يذكره ولا يَمُنّ به على أحد . « والنفقة » ، تقتضى وجود منفق ، ومنفقا عليه ، ومنفقا به ، المنفِق كما نعرف هو المؤمن الذى عنده فضل مال ، والمنفَق عليه هو الفقير ، والمنفَق به هو الخيرات .

ومن أين تأتى هذه الخيرات ؟ إنها تأتى نتيجة الحركة فى الحياة ، وحركة المتحرك فى الحياة تقتضى قدرة ، فإذا كان الإنسان عاجزا ، ولا يجد القدرة على الحركة ، فمن أين يعيش ؟ إن الله لابد أن يضمن له فى حركة القادر ما يعوله .

لقد جعل الله القدرة عرضا من أعراض الحياة ، فالقادر اليوم قد يصير عاجزا غدا . ومادامت القدرة عرضا من أعراض الحياة ، فالقادر الآن عندما يسمع الأمر

من الله بأن ينفق على غير القادر ، فلابد أن يُقدر فى نفسه أن قدرته هى عرض من أعراض الحياة ، والقادر الآن من الأغيار ، لذلك فهو عرضة لأن يصير غدا من العاجزين ، ويقول القادر لنفسه : « عندما أصبح عاجزا سوف أجد من يعطينى » . أليس ذلك هو التأمين الحق ؟ إنه تأمين المؤمن . إن المؤمن يعطى عند قدرته ، وذلك حتى يجنبه الله مشقة السؤال إن جاءت الأغيار ، لأن الأغيار إن جاءت سوف يجد من يعطيه .

إننا يجب أن نلحظ فى الحكم ، لا ساعة أن تطالب أنت بأداء مطلوب الحكم ، ولكن ساعة أن يؤدى الغير إليك مطلوب الحكم . فالذى يطلب منه أن ينفق ، عليه أن يقدر أنه قد يصبح عاجزا ، ولنا أن نسأله : لو كنت عاجزا ألم تكن تحب أن يعطيك الناس دون مَنّ أو أذى ؟

إن هذا هو التأمين الحق ، لأنّ التأمين فى يد الله ، ومادامت الأغيار عرضة لأن يصير القادر عاجزا ويصير العاجز قادرا ، فساعة ينفق المنفق يجب عليه أن يميت أنه أنفق فلا يتذكر وجه من أنفق عليه ، ولا يخبر أحدا بما أنفق .

عد الرسول صلى الله عليه وسلم الرجل الذى أنفق حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله فقال : (سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا فى الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)[1] .

وبعد ذلك على المؤمن المتق أن يُقدر ساعة عطائه أنه ادّخر ليأخذ ، إما أن يأخذ إن طرأت له الأغيار فى الدنيا ، وإما أن يأخذ من يد الله فى الآخرة أضعافا مضاعفة . إذن ، فالمنفق هو الذى يُؤَمِّنْ لغير القادر حركته فى الحياة ضمانا لنفسه حين لا يقدر ؛ أو استثمارا مضاعفا عند الله ، وهؤلاء المنفقون الذين يَسْعُونَ العاجزين بفضل ما لديهم ، يظهرون حكمة الله فى الوجود ، لأن الله مادام قد خلقنا ، وفينا

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وأحمد .

القادر ، وفينا العاجز ، فقد أراد الله لنا أن نعرف أن القدرة ليست لازمة فى الخلق . فإن قدرت الآن فقد تُسلب - بضم التاء - منك هذه القدرة ، ومادامت القدرة يتم سلبها ، فلابد أن يتمسك المؤمن بالقيوم الذى يقيم القدرة لك أيها المؤمن دائما ، وذلك حتى يعرف الواحد منا أنه لم ينفلت من ربه ، خلقنا قادرين وانتهت المسألة . لا . إنّ القدرة أغيار تذهب وتجيء . ومادامت الأغيار تذهب وتجيء فلابد أن يضع المؤمن نصب عينيه عطاء القادر الأعلى .

وقلنا سابقا : إن الله جعل المنفقين وصفا من أوصاف الذين اتقوا ، والذين أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وذلك حتى يحمى الله الضعيف الذى خلقه الله لحكمة فى الوجود . إن الإنفاق ليس أخذا من العبد ، إنما هو مناولة ، هذه المناولة تتضح فى أنه ما كان لك ما يزيد عن حاجتك ، إلا بحركتك فى الحياة .

وهذه الحركة فى الحياة تتطلب عقلا يخطط للحركة وجوارح تنفذ المخطط الفكرى ، ومادة يتم الفعل فيها سواء كانت أرضا تتم زراعتها ، أو آلة يتم الصنع بها ، ولا شيء للإنسان من هذا فى الكون . إن المخ الذى يدبر هو عطاء من الله ، والطاقة التى تنفذ هى عطاء من الله . ونحن نرى فى الحياة إنسانا قد نزع الله عنه المخ الذى يفكر ويدبر ، ونجد إنسانا آخر قد نزع الله منه الطاقة التى تنفذ ، فقد يمنع الله عن عبدٍ المادة التى يتفاعل معها .

إذن ، فلا شيء من هذه الأشياء ذاتى للإنسان ؛ إنها كلها عطاء من الله . فليعمل المؤمن مضاربا عند الله ، وليعط المؤمن للعاجز حق الله . إن الله لا يأخذ هذا الحق لنفسه إنما يريده الله لأخيك العاجز ، وسوف يطلب الله هذا الحق لك إذا عنّت لك حاجة بسبب الأغيار .

هكذا تكون « المنفقين » صفة من صفات الذين اتقوا ربهم . والحق سبحانه وتعالى قد جعل فى الصبر ، صلابة اليقين الإيمانى فى النفس البشرية . وفى الصدق انسجاما مع واقع لا إله إلا الله ، وفى النفقة حماية العاجز الذى لا يقدر .

وبعد ذلك يعود إلى نفس المؤمن عودة أخرى فيقول : « والمستغفرين بالأسحار » إننا يجب أن نأخذ هذا الوصف بعد مجيء الأوصاف الأخرى فى النفس البشرية . البداية

هى إقرارهم بالإيمان ، ودعاؤهم الحق ـ سبحانه ـ أن يغفر لهم وقد طلبوا الوقاية من عذاب النار ، وصبروا ، وصدقوا ، وقنتوا فى العبادة ، وأنفقوا فى سبيل الله ، إن كل هذه الأوصاف تبرىء ذمتهم من أنهم مقصرون أيضا فى حقوق إلههم لذلك فهم يأتون حال السكون بالليل ، ويستغفرون الله .

إما أن يستغفر العبد لأنه قد فرطت منه هفوة فى ذنب ، وإما أن يستغفر لأنه لم يَزِد فيما يفعله من أمور الطاعة . وكلمة « بالأسحار » توضح لنا لحظات من اليوم يكون الإنسان فيها محل الكسل والراحة ، إن الذى سوف يصحو فى السحر لابد أن يكون قد اكتفى من الراحة ، ولم يكن قد أخذ منه كد الحياة كل النهار ، ثم إن بعضهم يأخذه لهو الحياة ليلا .

وهذا هو وجه الخيبة لما يحدث فى زماننا . إن كد الحياة ـ إن أخذ ـ يأخذ نهارا ، وبعد ذلك يأخذنا لهو الحياة ليلا ، مما نشاهده من لهو الحديث ، ولهو السهرات ، وبعد ذلك يأتى الإنسان لينام متأخرا ، فكيف نطلب من هذا الإنسان أن يصحو فى السحر ؟ إن الذى يصحو فى السحر هو من أخذ حظه فى الراحة ، فبعد أن جاء من كد العمل نام نوما هادئا ، ويصحو من بعد ذلك فى السحر ليذكر ربه ، فى الوقت الذى نام فيه غيره من الناس ، لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى فى لحظة سكون الليل يوزع رحمته ، وعندما يصحو إنسان فى السحر ويدعو الله ، ويستغفره فإنه يأخذ من رحمة الله النازلة .

وعندما يأخذ هذا العبد من رحمة الله النازلة فى ذلك الوقت ، فمعنى هذا أنه سيأخذ الكثير من رحمة الله . وإياك أن تقول : لو صحونا جميعا فى الأسحار لنفدت الرحمة والعطاء « لا » ، لأن الله قد قال :

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾

(من الآية ٩٦ من سورة النحل)

إن قدرته جل وعلا تتسع لعطائنا جميعا دون أن ينقص شىء من عنده . إن كل هذه الأشياء من التقوى ، والإقرار بالإيمان ، وطلب المغفرة للذنوب ، وطلب الوقاية من عذاب النار ، والصبر ، والصدق ، والقنوت ، والإنفاق فى سبيل الله ،

والاستغفار بالأسحار ، كل ذلك نتيجة للتقوى الأولى .

إنها الثمرة من « لا إله إلا الله » . ومادامت هذه هى الثمرة من « لا إله إلا الله » فليعلم كل إنسان ، أن الله لم يدعك لتستنبطها أنت من مفقود ، بل اعلم أن الله قد شهد أنه لا إله إلا الله ،وكفى بالله شهيدا . ولذلك يقول الحق :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

ولنأخذ الجملة الأولى من الآية الكريمة بمعناها : لقد شهد الله أنه لا إله إلا هو ، أى أنَّ الحق قد أخبر بما رآه ، وشاهده ، أو ما يقوم مقام ذلك . إن « شهد » بمعنى علم .

إنه الحق الذى نصب الأدلة فى الوجود على قيوميته ، وعلى أنه إله واحد ، أليس فى ذلك إقامة للحجة على أنه إله واحد ؟ ومن الذى خلق الأدلة وجاء بها ؟ إنه الله . إذن ، فقد شهد الله أنه لا إله إلا هو . وقلنا : إن شهادة الله أنه لا إله إلا هو هى شهادة الذات للذات ، وشهادة الذات للذات تعنى أنها كلمة مُمَكَّنٌ منها . فعندما يقول الحق :

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

بالله لو لم يكن قد شهد لنفسه بأنه لا إله إلا هو ، وليس هناك من يعارض مبتغاه ، أكان يجازف فيقولها ؟ إنه الحق الأعلى الذى شهد أن لا إله إلا هو ، فساعة

أن يقول : « كن » فإنه قد علم ، أنه لا يوجد إله آخر يقول : « لا تكن » . إن الحق لابد أن يطمئننا أنه لا إله إلا هو ، لذلك فلزم أن يشهد لنفسه أنه لا إله إلا هو . إننا نجد أن من أسماء الله الحسنى « المؤمن » . بماذا يؤمن الله ؟ إنه مؤمن بأنه لا إله إلا هو ويلقى الأمر ، ويلقى الحكم التسخيرى ، ويعلم أنه لا إله يعارضه .

وأليس من مطلوبات الرسول صلى الله عليه وسلم أن يشهد أنه رسول الله ؟ لقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال فى صلاته : « أشهد أن محمدا رسول الله » . ولو لم يشهد بهذه لنفسه فكيف يجازف بالأشياء التى يقولها ؟ ولذلك فسيدنا أبو بكر عندما بلغه أمر بعث محمد رسولا ، قال ما معناه : أقالها محمد ؟ إنه صادق ، ومادام قد قالها فهى حق .

إن أبا بكر الصديق واثق من الرصيد الذى سبق بعث محمد بالرسالة . ونحن نرى فى التاريخ امرأة كان السبب فى إسلامها لمحة من سيرته صلى الله عليه وسلم . قرأت هذه المرأة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان له حراس من المؤمنين يقومون بحراسته من الكافرين . وبعد ذلك جاء يوم وصرف الرسول صلى الله عليه وسلم هؤلاء الحراس ، وقال لهم ما معناه : إن الله عصمنى من الناس فاذهبوا أنتم .

وقد قرأنا هذه الواقعة كثيرا جدا ، ولكن الفتح جاء من الحق لامرأة ، فشغلتها هذه المسألة ، وتساءلت : ألم يكن هؤلاء الحراس يحرسونه خوفا على حياته ؟ فلماذا قال لهم : « لا تحرسونى » لأن الله هو الذى يحرسنى ؟ فلو أن رسول الله قد غش الدنيا كلها ؛ أكان من الممكن أن يغش نفسه فى حياته ؟

وأجابت المرأة على نفسها : لا يمكن ، لابد أن رسول الله قد وثق تمام الثقة فى أن الله قد أبلغه أمر حمايته بدليل أنه قام بصرف الحراس ، وإلا فكيف يأمن أن يأتى أحد ليقتله ؟ قالت المرأة : والله لو خدع الناس جميعا ما خدع نفسه فى حياته ، أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . حدث إسلام هذه المرأة من نفحة يسيرة من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن ، « شهد الله أنه لا إله إلا هو » هى شهادة الذات للذات ، وكفى بالله

شهيدا . وشهدت الملائكة أيضا ، والملائكة هم الغيب الخفى عنا ، وتتلقى الأوامر من الحق . إن الملائكة لم يروا أحدا آخر يعطى لهم الأوامر ، إنه الإله الواحد القادر . وهذه هى شهادة المشهد . ويضاف إلى الملائكة « أولو العلم » ، لقد أخذ « أولو العلم » الأدلة وجلسوا يستنبطون من كون الله أدلة على أنه لا إله إلا الله .

إن هذه أعظم شهادة لأعظم مشهود به من أعظم شهود ، الله فى القمة ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، والملائكة وأولو العلم . ولقد أخذ أولو العلم منزلة كبيرة لأن الله قد قرنهم بالملائكة .

إن الحق سبحانه وتعالى يبلغنا أنه قد نثر فى كونه الآيات العجيبة العديدة ، والذى يجلس ، ويتفكر ويتدبر ، ويتفطن وينظر ، فإنه يستخرج الأدلة على أنه لا إله إلا هو ، وكما قلنا من قبل : إن أبسط الطرق للتدليل على هذه الحقيقة . إن كانت « لا إله إلا الله » صدقا فقد كفينا ، وإن كانت غير صدق فأين الإله الذى أخذ منه الله هذا الكون ، ولم يخبرنا ذلك الإله أنه صاحب الكون ؟ فإما أن هذا الإله الآخر لم يدْر ، أو أنه قد علم ، ولا يستطيع فعل شىء ، إذن فلا يصح أن يكون إلها يزاحم الحق الذى أبلغنا أنه لا إله إلا هو .

وتظل « لا إله إلا الله » لصاحبها ـ جل شأنه ـ « شهد الله أنه لا إله إلا هو » وفى كل حركة من حركات الحياة نجد أن الانفراد بصدور الحركة قد يعطى علوا ، وقد يعطى استكبارا . . لذلك نقول : ها هو ذا الخالق الأعلى الذى « لا إله إلا هو » يخبرنا أنه قائم بالقسط . ورغم أنه لا أحد فى استطاعته أن يتدارك على الله ، إلا أنه يطمئننا أنه قائم بالقسط .

ولنلحظ هنا ملحظا جميلا فى الأداء « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » لماذا لم يقل الله إن « الملائكة » و« أولو العلم » ، الذين شهدوا أنه لا إله إلا هو « قائمين » بالقسط ؟ لقد شهد الله أنه لا إله إلا هو قائما بالقسط ، والملائكة شهدوا هذه القضية والعلماء شهدوا أيضا بهذه القضية . . لماذا ؟ لأن الله لو قال : « قائمين بالقسط » لكان الله مشهودا عليه من هؤلاء ، والشهادة هى له وحده أنه قائم بالقسط والعدل .

لأنه سبحانه خلق الملائكة بالقسط ، فلو كانوا معه فى ذلك لما استقام الأمر ،

وأولو العلم أيضا مخلوقون بالقسط ، لأن الله قد وزع حركة الحياة على الناس ، فَنَاسٌ يعملـون بعقـولهم ، وآخرون يعملـون بقلوبهم ، وقوم غيرهم يعملون بجوارحهم ، فهذا هو لون من عدل الله ، وإلا ، فهل يدعى أحد أن إنسانا تتجمع فيه كل المواهب التى تتطلبها الحياة . لا ، وهذه من عدالة الرحمن .

إن من عدالة الحق أنه وزع المواهب بين البشر ، فبدلا من أن يعتمد الإنسان على نفسه فى صناعة الملبس والمأكل ، والمشرب ، جعل الله المهارات موزعة بين البشر . . فأتقنت مجموعة من البشر حرفة الزراعة لإنتاج الطعام الذى يكفيهم ، ويسد حاجة غيرهم ، وكذلك تبادلوا مع غيرهم المنافع ، فالإنسان ـ بمفرده ـ لا يستطيع أن يزرع القطن ويجمعه ويغزله وينسجه ، ليلبس ، والإنسان لا يستطيع أن يزرع القمح ويحصده ثم يطحنه ثم يخبزه .

إن الله لم يخلق الناس ليقوم كل فرد بإشباع حاجات نفسه المتنوعة ، إنما وزع الله المواهب ، لتتداخل هذه المواهب ، ويتكامل المجتمع البشرى ، فواحد يزرع الأرض ، وثانٍ يغزل القطن ، وثالث ينسج القماش ، ورابع يصنع الأدوات . وهذا عدل عظيم ، لأن الطاقة البشرية لا تقوى على أن تقوم بكل متطلبات الحياة ، لذلك جعل الحق هذا التنوع فى المواهب ليربط الناس بالناس قهرا عن الناس ، فلم يجعل لأحد تفضلا على أحد ، فمادام واحد يعرف فى مجال ، وآخر لا يعرف فى هذا المجال ، فالذى لا يعرف محتاج للآخر ، وهكذا يتبادل الناس المنافع رغما عنهم .

ولذلك نجد الكون متكاملا . ولينظر كل منا إلى حياته وليعدد كمْ زاوية من زوايا العلم ، وكم زاوية من زوايا القدرات ، وكم زاوية من زوايا المواهب تلزم حتى تخدم حركة الحياة ؟

إن هذه الزوايا موزعة على الناس جميعا ليخدموا جميعا حركة الحياة . وهذا قمة العدل . وحتى يوضح لنا الحق قيمة العدل وكيفية العدالة فى إقامة المحبة والاحترام بين البشر ، فلينظر الواحد منا إلى الإنسان الآخر البعيد عنه ، ويتساءل بينه وبين نفسه : أهذا الرجل البعيد عنى يعمل من أجلى ؟ وتكون الإجابة : نعم .

إذن ، فعلى الإنسان عندما يرى إنسانا متفوقا فى صنعة ما ، فليقل : إن تفوقه فى

صنعته عائد إلىّ وتفوقه فى موهبته عائد إلىّ ، وهكذا منع الله بالعدل الحقد والحسد ، وجعل الناس متكاتفين قهرا عنهم ، لا تفضلا منهم ، إذن ، فكل إنسان يسعى بحركة الحياة إنما يقيم نفسه فى زاوية من زوايا الحياة ، ومن العجيب أن الزاوية التى يحسنها الإنسان تكون حاجته فيها أقل الحاجات ، لذلك نجد المثل الريفى الذى يقول : « باب النجار مخلع » ، وذلك حتى يعلم الإنسان أن موهبة ما تكون عند غيره سوف تنفعه هو ، بدليل أن الموهبة التى عندك لم تنتفع أنت بها إلاّ قليلا .

وبذلك يشيع فى الناس اقتناع بأن موهبة كل فرد فيهم ، إنما تعود عليهم جميعا ، وبذلك تحل المحبة والاحترام بدلا من الحسد والحقد . وعندما سأل أحد الظرفاء : ولماذا يكون باب النجار هو « المخلع » ؟ قال أحد الظرفاء ردا عليه : لأنه الباب الوحيد الذى لن يأخذ النجار أجرا لإصلاحه ، ونلتفت إلى العجائب فى الحكمة الشائعة ، فنجد أطباء اخصائيين فى ألوان من المرض ، وصاروا أعلاما فى مجالات تخصصاتهم ، ويشاء الحق سبحانه وتعالى ألا يصابوا إلا بما برعوا فيه ، كأن الذى برعوا فيه لم يفدهم هم بشىء ، إنما أفاد الآخرين . ولننظر إلى الآية فى مجملها :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨ ﴾

(سورة آل عمران)

لقد استهلها الله بقوله : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » ثم قال بعد ذلك : « لا إله إلا هو العزيز الحكيم » . فكأن الآية تقول لنا : إذا ثبتت شهادة الذات للذات ، وشهادة المشهد من الملائكة ، وشهادة الاستدلال من العلماء ، فإن القاعدة تكون قد استقرت استقرارا نهائيا لاشك فيه ، فخذوها مسلمة : « لا إله إلا هو » .

ومادام « لا إله إلا هو » فليكن اعتمادك عليه وحده ، واعلم أنك إن اعتمدت عليه وحده إلها فأنت قد اعتمدت على عزيز لا يُغلب على أمره .

قال صلى الله عليه وسلم : « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فأستعن بالله ،

واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رُفعت الأقلام، وجفت الصحف »[1] .

فلا يستطيع أحد أن يدخل مع الله فى جدال . إنما يدخل خلق الله مع خلق الله فى خلاف أو نضال ، لكن لا أحد يجرؤ على أن يدخل فى نضال مع الله لأنه عزيز لا يغلب . فإن آمنت به وحده ، فلك الفوز . وكلمة « وحده » قد تبدو فى ظاهرها تقليلا للسند الذى تستند إليه فى القياس البشرى ، فيقال : « أنا لاجىء إلى فلان وحده » وعندما تكون لاجئا إلى عشرين ألا تكون أكثر قوة ؟ لكن هنا لا يكون قياس بين اللجوء إلى الله وحده ، بقياس اللجوء إلى مخلوق . إنك هنا تلجأ إلى خالق أعلى بيده مقاليد كل شيء وهو على كل شيء قدير ، فكلمة « وحده » هنا تغنيك وتكفيك عن الكل . اعمل لوجه واحد . يكفك كل الأوجه ، واعلم أنه لا يوجد من يغلبه على أمره .

وعظمة الحق أنه واحد أحد فرد متفرد صمد ، وهو عزيز لا يُغْلب على أمره ، وهو صاحب كل الحكمة فى وضع الأشياء فى مواضعها بحيث إذا ما عرفت حكمة ما يجريه الله سبحانه وتعالى على خلقه فأنت تتعجب من عظمة قدرة الله ؛ لأن الحكمة هى وضع الشيء فى موضعه ، ومادمت قد وضعت الشيء فى موضعه فإنه لا يكون هناك قَلَقٌ ، ومادام الشيء موضوعا فى مكانه فهو مستقر ، ومادام الشيء مستقرا فإنه لا يتلون وتزداد الثقة فيه ، وهذه مأخوذة من « الحَكَمَة » التى توضع فى فم الفرس ، والتى نسميها « اللجام » وهى كما نعرف تتكون من قطعة من الجلد تدخل على اللسان وفيها قطعة من الحديد ، فإن مال إلى غير الاتجاه الذى تريد ، يكون من السهل جذبه إلى الاتجاه الصحيح .

إن وجود الحكمة يعنى وجود شيء يحكمه فلا ينحرف يمينا ولا يسارا ، ومادام الله قد شهد أنه لا إله إلا هو ، وشهدت الملائكة وشهد أولو العلم ، وانتهت القضية بعد هذه الشهادات إلى أنه لا إله إلا هو ، وأنه العزيز الحكيم ، فكل منهج منه يجب أن يُسلم إليه ، وأن ينقاد له . ومادام الله قد شهد لنفسه بأنه إله واحد ، أى لا يوجد له

---

(١) رواه الترمذى .

شريك ينازعه فيما يريد من خلقه ، وليس لله شريك فى الخلق ، وليس لله شريك فى الرزق ، وليس له شريك فى التشريع .

إذن .. فالجهة التى نستمد منها مقومات منهجنا هى جهة واحدة ، وكان من الممكن أن تظلم وتجور هذه الجهة الواحدة الخالقة على ما خلقت لأنه ليس لأحد من خلق الله حق على الله ، لكن الله سبحانه عادل ، إنه سبحانه يطمئننا ، فهذه الوحدانية بقدرتها وجبروتها وعلمها وحكمتها عادلة لا تظلم ، لأنه قال : مع أنى إله واحد ، لا يُرد لى حكم ولا أمر فأنا قائم بالقسط .

والقيام بالقسط يجب أن نتوقف عنده لنفهمه جيدا ، إن الحق يقول عن نفسه : « قائما بالقسط » وكلمة قائم تعنى أن الله قد خلقهم الخلقَ الأول ، وهذا الخلق إنما قام على العدل والقسط . وتكليف الحق للخلق قام على العدل والقسط . والعدل والقسط يقتضى ميزانا لا ترجح فيه كفة على كفة ، وهذا الميزان ممسوك بيد القدرة القاهرة التى لا توجد قوة أعلى منها تميل فى الحكم ، والحق سبحانه قائم بالقسط فى الخلق ، فقبل أن يخلقنا أعدّ لنا ما تتطلبه حياتنا بالقسط أيضا ، فلم يجعل أمر الحياة قائما على الأسباب التى يكلفنا بها لنعيش ، بل حكم بالقسط ، لقد جعل الحق بعضا من الأمور لا دخل لنا نحن العباد فيها ، ولم يقض الحق بذلك على حركتنا ولا على حريتنا فى الحركة ، لذلك خلق لنا أسبابا إن شئنا أن نفعل بها وصلنا إلى المسببات ، وإن شئنا ألا نفعل فنترك الأسباب والمسببات .

إذن .. فالحق سبحانه لم يحكمنا فى قضية الخلق الأولى بشىء واحد ، بأن يجبرنا على كل شىء ، بل جبرنا بأنه ـ سبحانه ـ لم يدخل أسبابنا ولا حركتنا فى كثير من الحركات التى تترتب عنيها الحياة ، فلم يجعل الشمس بأيدينا ، ولا القمر ، ولا الريح ، ولا المطر . كل هذه الأسباب جعلها بيده هو ، لماذا ؟ لأن هذه الأسباب ستفعل للمخلوق قبل أن تكون له قدرة . هذه الأسباب تفعل للإنسان قبل أن توجد له حياة ؛ لتمهد للحياة التى يهبك الله إياها ، فلو ترك الله كل هذه الأشياء لأسباب الإنسان لتأخرت هذه الأشياء إلى أن يوجد للإنسان إرادة ، وتوجد له قدرة وعلم .

لقد جعل الله أسباب الحياة بيده ، كالتنفس مثلا ، إن التنفس لا يخضع لإرادة القدرة على الحركة فى الحياة، ولكنه قال لك: أيها الإنسان ـ وهو سبحانه الإله القادر ـ تحرك

التنفس إلى أن توجد له إرادة . ولا توجد الإرادة إلا إن وُجد عند الإنسان علم بأنه يريد إدخال الأوكسجين إلى الرئتين حتى يغذى الدم والمخ وينقى الدم والجسم من الأشياء التى تضره ، هذا يقتضى العلم ، فإذا كان هذا الأمر يقتضى العلم . فماذا يصنع الطفل الذى ليس له علم ؟ كيف يتنفس ؟

لذلك فمن رحمة الله وعدالته أن جعل أمر التنفس ـ على سبيل المثال ـ بيده هو سبحانه ، ولكن الحق سبحانه لم يقض على مخلوقه بأن يجعله فى الكون بلا حرية أو اختيار ، لا ، لقد ترك الحق سبحانه بعضا من الأشياء لحرية الإنسان واختياره .

إذن ، فالحق لم يلزم العبد تسخيرا ، ولم يمنع تخييرا . وذلك هو العدل المطلق . لقد احترم الحق كينونة الإنسان ، وحياة الإنسان ، ومشيئة الإنسان ، واختيار الإنسان ، فقال : أنا سأعطيك أسباب الحياة الضرورية ولا أجعل لك دخلا فيها ، لأنك إن تدخلت فيها أفسدتها ، وتأخر وصول خدمتها لك إلى أن تعرف وتعلم ، وأنا ـ الحق ـ أريدُها لك ، وأنت أيها الإنسان عاجز قبل أن توجد لك ، وأنت قادر بوجودها الذى أمنحه لك ، لذلك جعلتها بيدى أنا الخالق المأمون على خلقى . ولكن لن أقضى على حريتك ، فإن أردت ارتقاءً فى الحياة فتحرك فى الحياة ، إن شئت أيها الإنسان أن تفعل فافعل . وإن شئت أيها الإنسان ألا تفعل فلا تفعل . وهذا مطلق العدل .

ثم جاء الحق سبحانه وتعالى وجعل قوله : « قائما بالقسط » مشتملا على التكليف أيضا ، أى إن عدالته فى التكليف مطلقة . فأناس يقولون : « لا إله » وأناس آخرون عددوا الآلهة ، فقام الحق بالقسط بين الأمرين . هو إله موجود يا من تقول : « لا إله » . وهو إله غير متعدد يا من تشرك معه غيره . وهذا قيام بالقسط . وجاء الحق سبحانه فى الأحكام . نحن نجد أحكاما شرعية طلبها الحق سبحانه من العبد طلبا باتا ، ولم يتركها لاختيار الإنسان ونجد أشياء تركها الحق سبحانه ليجتهد فيها الإنسان ، فلم يجعل الحق سبحانه العبد حرا طليقا يعربد فى الكون كما يشاء ، ولم يجعل الحق سبحانه عبده مقهورا أو مقسورا بحيث لا توجد له إرادة أو اختيار .

لقد جعل الله للإنسان مجالا فى القسر ومجالا فى الاختيار ، أوجد فى الإنسان القدرة على الحركة فى الحياة ، ولكنه قال لك : أيها الإنسان ـ وهو الإله القادر ـ تحرك